

— فلسفة الثورة —



## مقدمة

إن هذه الخواطر ليست محاولة لتأليف كتاب...  
ولا هي محاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو وحوادثها.... إنها  
هي شيء آخر تماما....  
إنها أشبه ما تكون بدورية استكشاف.. إنها محاولة لاستكشاف  
نفوسنا لكي نعرف من نحن وما دورنا في تاريخ مصر المتصل  
الحلقات....  
ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا في الماضي والحاضر  
لكي نعرف في أي طريق نسير...  
ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التي يجب أن نحشدنا  
لنحقق هذه الأهداف...  
ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا، لنعرف أننا لا نعيش  
في جزيرة الماء من جميع الجهات...  
هذا هو الذي قصدت إليه...  
مجرد دورية استكشاف في الميدان الذي نحارب فيه في معركتنا  
الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال...  
جمال عبد الناصر



## الجزء الأول:

ليست فلسفة - محاولات لم تتم - ليست مجرد تمرد - كنا في فلسطين  
وأحلامنا في مصر - أحمد عبد العزيز قبل أن يموت - درس من إسرائيل -  
أيام التلمذة - الحقيقة والفراغ - لماذا كان لا بد أن يتحرك الجيش - الصورة  
الكاملة - الطليعة والجموع - أقصى الأمان نموذج من أعضاء مجلس الثورة  
- أزمات نفسية - ثورتان في وقت واحد - لكيلا يقع تصادم على الطريق .



قبل أن أمضي في هذا الحديث أريد أن أقف قليلاً عند كلمة «فلسفة» .  
إن الكلمة ضخمة و كبيرة ..

وأنا أحس و أنا واقف حيالها أني أمام عالم واسع ليس له حدود ، و أشعر في نفسي برهبة خفية تمنعني من أن أخوض في بحر ليس له قاع ، و لا أرى له على بعد ، من الشاطئ الذي أقف فيه شاطئاً آخر أنتهى إليه .

والحق أني أريد أن أتجنب كلمة فلسفة في هذا الذي سأقوله ، ثم أنا أظن أنه من الصعب علي أن أتحدث على فلسفة الثورة لسببين :

أولهما : إن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوة يملؤها الهباء وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات .

إن كفاح أي شعب ، جيلاً من بعد جيل ، بناء يرتفع حجر فوق حجر ..  
وكما أن كل حجر في البناء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعدة يرتكز عليها ،  
كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب .

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو في نفس الوقت مقدمة لحدث  
مازال في ضمير الغيب ..

\*\*\*

ولست أريد أن ادعي لنفسي مقعد أستاذ التاريخ....  
ذلك آخر ما يجري به خيالي .

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدئ ، في دراسة قصة كفاح شعبنا ، فأننا  
سوف أقول مثلاً : إن ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر ، منذ  
بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه ، وفي أن تكون له نفس

الكلمة العليا في مصيره .

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذي تمناه ، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد علي والياً على مصر ، باسم شعبها .  
وقام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذي تمناه ، يوم حاول عرابي أن يطالب بالدستور .

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الأمل الذي تمناه في فترة الغليان الفكري التي عاشها بين الثورة العراقية و ثورة سنة ١٩١٩ .  
وكانت هذه الثورة الأخيرة \_ ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول \_ محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذي تمناه ..

وليس صحيحاً أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحاً كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التي راح ضحيتها جنود وضباط ، وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال أن السبب كان أزمة انتخابات نادي ضباط الجيش .

إنما الأمر في رأيي كان أبعد من هذا و أعمق أغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم في فلسطين ، أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكن أقرب الأشياء إلى وصفه أنه مجرد تمرد ، حتى وإن كانت الأسباب التي أدت إليه منصفة عادلة في حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة .

وربما كان أكبر تأثير لها أنها تستحشنا على الإسراع في طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول بعد كل ما مر بي من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير

في الثورة، أن أعود بذاكرتي وأتعقب اليوم الأول، الذي اكتشفت فيه بذورها في نفسي .

إن هذا اليوم أبعد في حياتي من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ أيام ابتداء أزمة نادي الضباط، ففي ذلك كان تنظيم الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشاطه، بل أنا لا أعالي إذا قلت أن أزمة انتخابات النادي أثارها أكثر من أي شيء آخر في نشاط الضباط الأحرار، فقد شئنا في ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم - في حياتي أيضا - أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودا قبلها، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة، وكان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الأسلحة الفاسدة.

بل إن هذا اليوم في حياتي أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذي كان بداية حياتي في حرب فلسطين .

\*\*\*

وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين أجد شيئا غريبا . فقد كنا نحارب في فلسطين ولكن أحلامنا كلها في مصر . كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا في خنادقه، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه . وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز .

في فلسطين جاءني صلاح سالم وزكريا محيي الدين و اخترقا الحصار إلى الفالوجة، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية كان حديثنا الشاغل ووطننا الذي يتعين أن نحاول إنقاذه .

وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين وقال لي وهو ساهم الفكر  
شارد النظرات :

هل تعلم ماذا قال لي أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟  
قلت : ماذا قال ..؟

وقال كمال الدين حسين وفي صوته نبرة عميقة وفي عينيه نظرة أعمق :

لقد قال لي : اسمع يا كمال، إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر...

ولم ألتق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر، وإنما  
التقيت أيضا بالأفكار التي أثارها أمامي السبيل.

وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا...

كانت الفالوجة محاصرة، وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدفع والطيران  
تركيزا هائلا مروعا.

وكثيرا ما قلت لنفسي:

« ها نحن هنا في هذه الجحور محاصرين ، لقد غرر بنا ، دفعنا إلى معركة لم نعد لها ،  
ولقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات و شهوات ، و تركنا هنا تحت النيران بغير  
السلاح » .

وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيري كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر  
ميدان القتال ، وعبر الحدود ، إلى مصر ، وأقول لنفسي:

هذا هو وطننا هناك ، إنه «فالوجة» أخرى على نطاق كبير ...

إن الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحدث هناك. صورة مصغرة...

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرر به ودفع إلى معركة لم يعد لها ،  
ولعبت بأقدار مطامع ومؤامرات و شهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح !



وأكثر من هذا ، ولم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معي عن مستقبل وطننا في فلسطين ولم تكن التجارب هي التي قرعت أفكارنا بالندى والاحتمالات عن مصيره ، بل إن الأعداء أيضاً لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن و مشاكله ...

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عني ضابط إسرائيلي اسمه «يردهان كوهين» ونشرتها له جريدة «جويشن أوبزرفر» وفي هذه المقالات روى الضابط اليهودي كيف التقى بي أثناء مباحثات و اتصالات عن الهدنة وقال:

«ولقد كان الموضوع الذي يطرقه جمال عبد الناصر معي هو كفاح إسرائيل ضد إنجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومة السرية لهم في فلسطين، وكيف استطعنا أن نجد الرأي العام في العالم وراءنا في كفاحنا ضدهم».

\*\*\*

ثم إن هذا اليوم \_ اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في نفسي \_ أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذي كتبت بعده خطاباً إلى صديق قلت له فيه:

« ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين؟»

الحقيقة أنني أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأى امرأة من العاهرات ..

وطبعاً هذا حاله أو تلك عاداته .

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية ، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو أصبحوا يتكلمون عن التضحية و الاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة ، أصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا - مع ضعفهم الظاهر - ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن غداً لناظره قريب ...

لقد حاول بعضهم بعد الحادث أن يعملوا شيئاً بغية الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار و أسي ..

والواقع أن هذه الحركة .... إن هذه الطعنة ردت الروح إلى بعض الأجساد ، وعرفتهم أن هذه كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها وكان درساً قاسياً .

وكذلك فإن هذا اليوم أبعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه أيام كنت طالبا أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ وقد عاد الدستور ١٩٢٣ بالفعل في سنة ١٩٣٥ .. وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة ، إلى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدثوا من أجل مصر ، وتألقت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

وأذكر أنني في فترة الفوران هذه كتبت خطاباً إلى صديق من أصدقائي قلت فيه ، وكان التاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :

أخي ..

خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس في التليفون وقد سألته عنك فأخبرني أنك موجود في المدرسة ..

لذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونياً قال الله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ فأين تلك القوة التي نستعد بها لهم ؟ .

إن الموقف اليوم الدقيق ، ومصر في موقف أدق ونحن نكاد نودع حياة ونصافح الموت ، فإن بناء اليأس عظيم الأركان ، فأين من يهدم هذا البناء ؟ ..

ثم مضيت في هذا الخطاب إلى آخره ..

وإذن فمتى كان ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه بدور الثورة في أعماقي .. ؟ إنه

بعيد .

فإذا أضيف إلى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة في أعماقي وحدي ، وإنما

وجدتها كذلك في أعماق كثيرين غيري هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه ، لا تضح إذن أن هذه البذور ولدت في أعماقنا حين ولدنا ، وإنما كانت أملاً مكبوتاً خلقه في وجداننا جيل سبقنا .

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذي من أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة وقلت : إن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا ..

أما السبب الثاني : فهو أنني كنت بنفسي داخل الدوامة العنيفة للثورة . والذين يعيشون في أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها . وكذلك كنت بإيماني وعقلي وراء كل ما حدث ، وبنفس الطريقة التي حدث بها ، وإذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسي حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعاني المستترة وراءه ؟ .

أنا من المؤمنين بأنه لا شيء يمكن أن يعيش في فراغ ..  
حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش في فراغ ..  
والحقيقة الكامنة في أعماقنا هي : ما نتصوره أنه الحقيقة أو بمعنى أصح : هو الحقيقة مضاف إليه نفوسنا...

نفوسنا هي الوعاء الذي يعيش فيه كل ما فينا وعلى كل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق .

وأنا أحاول بقدر ما تستطيع طاقتي البشرية أن أمنع نفسي من أن تغير كثيراً من شكل الحقيقة ، ولكن إلى أي حد سوف يلازمني التوفيق ؟

هذا سؤال ...

وبعد أريد أن أكون منصفاً لنفسي ، ومنصفاً لفلسفة الثورة ، فأتركها لتاريخ يجمع شكلها في نفسي ، وشكلها في نفوس غيري ، وشكلها في الحوادث جميعاً ،

ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة.

\*\*\*

وإذن فما الذي أريد أن أتحدث عنه إذا كنت قد استبعدت كلمة «فلسفة»؟ الواقع إن الذي أملكه في هذا الصدد شيثان :

أولهما : مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملي ، موضع التنفيذ الفعلي في منتصف ٢٣ يوليو حتى الآن .. وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث .....

لطالما ألح على خواطري سؤال ، هو :

«هل كان يجب أن يقوم ، نحن الجيش ، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢؟» . لقد قلت منذ سطور ، إن ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيق لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ العصر الحديث يفكر أن يكون حكمه في أيدي أبنائه ، وفي أن تكون له نفس الكلمة العليا . في مصيره .

إذ كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذي حدث يوم ٢٣ يوليو تمرداً عسكرياً ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة . ولقد آمنت بالجندي طوال عمري ، والجندي تجعل للجيش واجباً واحداً ، هو أن يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطراً للعمل في عاصمة الوطن ، لا على حدوده ؟ .

ومرة أخرى ، دعوني أنبه إلى أن الهزيمة في فلسطين ، والأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادي الضباط ... لم تكن المنابع الحقيقية التي تدفق منها السيل ، لقد كانت كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها - كما سبق أن قلت - لا يمكن أبداً أن تكون هي الأصل والأساس .

وإذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب؟

قلت : إن هذا السؤال طالما ألح على خواطري ..

ألح عليها ونحن في دور الأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو وألح عليها في مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو ولقد كانت أماننا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذي قمنا به ..

كنا نقول : إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟ .

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذي يورق به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول إلى الطاغية فيبدد أحلامه هو ..

وكنا نقول غير هذا كثيراً ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله ، إننا كنا نشعر شعوراً يمتد إلى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا ، وإننا إذا لم نقم به فإننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها .

ولكنني أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح في خيالي إلا بعد فترة طويلة من

التجربة عقب ٢٣ يوليو ...

وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هي بعينها تفاصيل الصورة وأنا أشهد أنه مرت علي بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسي وزملائي وباقي الجيش بالحماقة والجنون الذي صنعناه في ٢٣ يوليو ...

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وإنها لا تنتظر إلا الطليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفاً مترابطة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً إلى الهدف الكبير ....

وكنت أتصور دورنا على دور طليعة فدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المترابطة المنتظمة إلى الهدف الكبير ، بل كان الخيال يشط بي أحيانا فيخيل إلي أنني أسمع صليل الصفوف المترابطة ، وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلى الهدف الكبير ،

أسمع هذا كله ويبدو في سمعي من فرط إيماني به حقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ...

ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ يوليو ..

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المترابطة المنتظمة إلى الهدف الكبير...  
وطال انتظارها ..

لقد جاءت جمعها ليس لها آخر.. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال ! .

كانت الجموع التي جاءت أشياحاً متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قائمة مخيفة تنذر بالخطر .. وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة وإنما من هذه الساعة بدأت..

كنا في حاجة إلى النظام ، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى ..

كنا في حاجة إلى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف..

وكنا في حاجة إلى العمل ، فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل .. ومن هنا وليس من أي شيء آخر ، أخذت الثورة شعارها .

ولم نكن على استعداد ..

وذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي ، والخبرة من أصحابها. ومن سوء حظنا لم

نعثر على شيء كثير...

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر ؟

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى .

ولو أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله إلا أن نجلس بين الأشلاء الأنقاض ندب الحظ البائس ونلوم

القدر التعس!

وانهالت علينا الشكاوي والعرائض بالألوف ومئات الألوف ، ولو كانت أن هذه الشكاوي والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الأنصاف ، أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل ، لكان الأمر منطقياً و مفهوماً ، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام ... كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً في يد الحاقدين و المبغضين !

\*\*\*

ولو أن أحد سألني في تلك الأيام ، ما أعز أمانيك ؟ قلت له على الفور :  
 أن أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر .  
 وأن أحس أن مصرياً قد فتح قلبه للصفح و الغفران و الحب لإخوانه المصريين .  
 وأن أرى مصرياً يكرس وقته لتسفيه آراء مصري آخر .  
 وكانت هناك بعد ذلك كلمة أنانية فردية مستحكمة ...  
 كانت كلمة « أنا » على كل لسان ...  
 كانت هي الحل لكل مشكلة ، وهي الدواء لكل داء ...  
 وكثيراً ما كنت أقابل كبراء - أو هكذا تسميهم الصحف - من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلالها ، فلم أكن أسمع إلا « أنا » ..  
 مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفهمها ، أما الباقون جميعاً فهم في العلم أطفال يجبون .  
 ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير ، أما الباقون جميعاً فما زالوا في « ألف باء » لم يتقدموا بعدها حرفاً واحداً .  
 وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود إلى زملائي فأقول لهم في حسرة :

لا فائدة .. هذا الرجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزائر هاواي لما وجدنا عنده إلا كلمة « أنا! »

أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامي منهم كثيرون .... وتكلموا طويلا ...

ومن سوء الحظ أن أحداً منهم لم يقدم لي أفكاراً ، وإنما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لي نفسه ، وكفاياته الخلقية وحدها تعمل المعجزات ، ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على نفسه بكنوز الأرض و ذخائر الخلود !.

وأذكر أني لم أتمالك نفسي فقمتم بعدها أقول لهم :

«إن كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع المعجزات ، إن واجبه الأول أن يعطي كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم في طلبتكم ، وجعتموهم - كما يجب - عملكم الأساسي ، لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن .

إن كل واحد منا يجب أن يبقى في مكانه ويبدل فيه كل جهده .

لا تنظروا إلينا ، لقد اضطررنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا إلا في صفوف الجيش كجنود محترفين ، وإذن لبقينا فيه . »

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل في أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم أشأ أن أقول لهم أنهم قبل أن يدعوهم الطارئ الذي دعاهم إلى الواجب الأكبر كانوا يبذلون في عملهم كل جهدهم .

ولم أشأ أن أقول لهم : إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة في كلية أركان حرب ، وهذا دليل امتياز من ناحيتهم كجنود محترفين .

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم : إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم

عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين ، راقوا ترقيات استثنائية في ميدان القتال في فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئاً من هذا ، لأنني لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم إخوتي وزملائي .

\*\*\*

وأعترف إن هذا الحال كله سبب لي أزمة نفسية كئيبة.

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت وقع الأزمة في نفسي ، وجعلتني ألتمس لهذا كله أعذار من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامي - إلى حد ما - الصورة الكاملة لحالة الوطن ، وأكثر من هذا أعطتني الجواب على سؤال الذي قلت أنه لطالما راودني ، وهو :

«هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو؟»

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !.

وأنا الآن أستطيع أن أقول : إننا نعيش في ثورتين وليس في ثورة واحدة .

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان ثورة سياسية :

يستردها حقها في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليها ، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه .

ثورة اجتماعية : تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشري شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشها معاً . وإنما فصل بين الواحد والثانية مئات من السنين ، أما نحن فإن التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هي أن تعيش الثورتان معاً في وقت واحد .

\*\*\*

وهذه التجربة الهائلة مبعثاً أن لكل من الثورتين ظروفًا مختلفة تتنافر تنافراً عجبياً ،  
وتتصادم تصادماً مروعاً .

وأن الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة و ترابطها  
وتساندها ونكرانها لذاتها في سبيل الوطن كله .

الثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها ، تزلزل القيم وتخلخل العقائد ، وتصارع  
المواطنين مع أنفسهم أفراد وطبقات ، وتحكم الفساد والشك و الكراهية ..  
والأنانية .

وبين شقي الرحى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم في ثورتين: ثورة تحتم علينا أن  
نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى في الهدف ، وثورة تفرض علينا - برغم إرادتنا - أن  
نتفرق ، وتسود البغضاء ولا يفكر كل منا إلا في نفسه .

وبين شقي الرحى هذين - مثلاً - ضاعت ثورة ١٩١٩ ، ولم تستطع أن تحقق  
النتائج التي كان يجب أن يحققها .

الصفوف التي تراصت في سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث إلا قليلاً حتى  
شغلها الصراع فيما بينها أفراد و طبقات .

وكانت النتيجة فشلاً كبيراً ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكماً فينا ، سواء بواسطة  
قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التي كان يتزعمها في ذلك  
الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ، ولم يحصد الشعب إلا الشكوك في نفسه  
والكراهية و البغضاء والأحقاد فيما بين أفراد و طبقاته .

وشحب الأمل الذي كان ينتظر أن يحققه ثورة ١٩١٩ ...

\*\*\*

ولقد قلت : لقد شحب الأمل ، ولم أقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة  
الطبيعية التي تدفعها الآمال الكبيرة التي تراود شعبنا ، كانت لا تزال تعمل عملها

وتستعد لمحاولة جديدة.

وكان ذلك هو الحال الذي ساد بعد ثورة ١٩١٩ والذي فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين أفرادها إطار واحد، يبعد عنهم إلى حد ما صراع الأفراد و الطبقات ، وأن تكون هذه القوة من صنيم الشعب ، وأن يكون في استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون في يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملاً شريفاً حاسماً ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا على الجيش .

وهكذا لم يكن الجيش - كما قلت - هو الذي حدد دوره في الحوادث ، وإنما العكس كان أقرب إلى الصحة ، وكانت الحوادث و تطوراتها هي التي حددت للجيش دوره في الصراع الكبير لتحرير الوطن .

\*\*\*

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على إدراكنا الكامل لطبيعة الظروف التي نعيش فيها من تاريخ و طئنا ، فإننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم ، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم في الزمن . . . . . وكذلك لم يكن في استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندي المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ، ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وإنما كان الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الإمكان و ننجو من أن يطحننا شقا الرحي!

وكان لابد أن نسير في طريق الثورتين معاً .

ويوم سرنا في طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروقاً عن عرشه سرنا خطوة مماثلة في طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية .

ومازلت أعتقد حتى اليوم أنه ينبغي أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة، لكي تستطيع أن تحقق معجزة السير في ثورتين في وقت واحد، ومهما يبدو في بعض الأحيان من التناقض في تصرفاتنا .

وحين جاءني واحد من أصدقائي يقول لي :

« أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز . وأنت في نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر في عملها» .

استمعت إليه ، وكانت في خيالي أزممتنا الكبيرة ، أزمة شقي الرحي :

أزمة تقتضي أن نتحد صفاً واحداً وننسى الماضي .

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الذائبة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضي ! .

ولم أقل لهذا الصديق : إن منفذنا الوحيد إلى النجاة ، أن نحافظ - كما قلت -

بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدر على أن نسير في طريقين في وقت واحد .

ولم أشأ أنا ذلك ، ولا شاء كل الذين شاركوا في ٢٣ يوليو .

ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التي يمر بها اليوم .



## الجزء الثاني:

العمل الإيجابي - الحماسة لا تكفي - الرصاص يتكلم - صراخ  
وعويل في الليل - ما أسهل أن يراق الدم - جذور في التاريخ - يا  
عزيز يا عزيز - الفولاذ ينهار - سوف يتبلور هذا المجتمع - أعصاب  
الناس وعقولهم - أغضبنا الجميع - هذه حدودنا وذلك واجبنا



ولكن ما الذي نريد أن نصنعه ؟

وما الطريق إليه ؟

الحق أنني في معظم الأحيان كنت أعرف الإجابة عن السؤال الأول . وأخال أنني لم أكن وحدي المنفرد بهذه المعرفة ، وإنما كانت تلك المعرفة أملاً انعقد عليه إجماع جيلنا كله .

أما الإجابة عن السؤال الثاني « وما طريقنا إلى هذا الذي نريد ؟ » .

فأنا أعترف أنها تغيرت في خيالي كما لم يتغير شيء آخر ، وأكاد أعتقد أنها موضوع الخلاف الأكبر في هذا الجيل !

وما من شك في أننا نحلم بمصر المتحررة القوية .. ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصري ومصري .

أما الطريق إلى التحرر والقوة .. فتلك عقدة العقد في حياتنا .

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيراً حتى اتضح لي زوايا كثيرة كانت في الظلال تسقط عليها فتخفيها ، وبدت أمام بصيرتي آفاق كان الظلام الذي ساد وطننا قروناً طويلة يلفها فلا أراها!

\*\*\*

ولقد أحسست منذ انبثق الوعي في وجداني ، أن العمل الإيجابي وجب أن يكون طريقنا ولكن أي عمل ! .

ولقد تبدو كلمة « العمل الإيجابي » على الورق كافية لتحل المشكلة . ولكنها في الحياة وفي الظروف العسيرة التي عاشها جيلنا وفي المحن التي كانت تنشب أظفارها في مقدرات وطننا ، لم تكن كافية .

وفي فترة من حياتي كانت الحماسة هي العمل الإيجابي في تقديري . ثم تغير مثلي الأعلى في العمل الإيجابي وأصبحت أرى أنه لا يكفي أن تضج أعصابي وحدي

بالحماسة ، وإنما على أن أنقل حماستي كي تضج بها أعصاب الآخرين ..  
وفي تلك الأيام قدت مظاهرات في مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقي  
بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائي كثيرون .. ولكن صراخنا ضاع هباءً وبددته  
الرياح أصداءً واهنةً لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور .  
ثم أصبح العمل الإيجابي في رأبي أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة  
واحدة ، وطافت جموعنا الهائفة الشائرة بيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم  
شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة .. ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان  
فجيعة لإيماني . فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ .

\*\*\*

وجاءت الحرب العالمية الثانية و ما سبقها بقليل على شبابنا فأهبطته وأشاعت  
النار في خلداتهم فبدأ اتجاهنا ، اتجاه جيل بأكمله يسير إلى العنف .  
وأعترف - ولعل النائب العام لا يؤاخذني بهذا الاعتراف - أن الاغتيالات  
السياسية توهجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة على أنها العمل الإيجابي الذي لا  
مفر من الإقدام عليه إذ كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا .  
وفكرت في اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين  
مستقبله ، ورحت أفند جرائمهم ، وأضع نفسي موضع الحكم على أعمالهم ، وعلى  
الأضرار التي ألحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذي يجب أن يصدر  
عليهم .

وفكرت في اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .  
ولم أكن وحدي في هذا التفكير .  
ولما جلست مع غيري انتقل بنا التفكير إلى التدبير .  
وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام ، وما أكثر الليالي التي سهرتها ، أعد

العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة .

كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام ، وكنا نرصد المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به ! .  
وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومازالت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق إلى نهايته .

والحق أنني لم أكن في أعماقي مستريحاً إلى تصور العنف على أنه العمل الإيجابي الذي يتعين علينا أن نقتضيه مستقبلاً ووطننا .

كانت في نفسي حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الإيمان ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل ..

ورويداً ورويداً وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت في خيالي ، تجبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الإيجابي المنتظر ..  
وأذكر ليلة حاسمة في مجرى أفكارى وأحلامي في هذا الاتجاه ، كنا قد أعددنا العدة للعمل .

واخترنا واحداً قلنا إنه يجب أن يزول من الطريق .

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل .

وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد إلى بيته في الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التي تتولى إطلاق النار ، وربنا فرقة الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم ، وربنا فرقة تنظيم الإفلات إلى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعة التنفيذ .

وسار كل شيء طبقاً لما تصورناه .

كان المسرح خالياً كما توقعنا ، وكمنت الفرق في أماكنها التي حددت لها ، أقبل الواحد الذي كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص .

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الإفلات إلى النجاة ، وأدرت محرك سيارتي وانطلقت أغادر المسرح الذي شهد عملنا الإيجابي الذي رتبناه .

وفجأة دوت في سمعي أصوات صرير و عويل ، ولوعة امرأة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

و كنت غارقاً في مجموعة من الانفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بي مسرعة .  
ثم أدركت شيئاً عجيبياً .

كانت الأصوات مازالت تمزق سمعي .

الصراخ و العويل و الولوجة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسري الصوت ، ومع ذلك بدأ ذلك كله يلاحقني و يطاردني .

ووصلت إلى بيتي ، واستلقيت على فراشي ، وفي عقلي حمى ، وفي قلبي وضميري غليان متصل .

وكانت أصوات الصرير و العويل و الولوجة والاستغاثة مازالت تطرق سمعي .  
ولم أنم طوال الليل ...

بقيت مستلقياً على فراشي في الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني .

\* أكنت على حق ؟

وأقول لنفسي في يقين :

- دوافعي كانت من أجل وطني !

\* أكانت تلك وسيلة لا مفر منها؟

وأقول لنفسي في شك :

- ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل؟

\* أيمكن حقاً أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا الواحد أو من غيره ،

أم المسألة أعمق من هذا؟

وأقول لنفسي في حيرة :

- أكاد أحس أن المسألة أعمق ..

\* إننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضي من يجب أن يمضي ، أم يجيء من

يجب أن يجيء؟

وأقول لنفسي وإشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدهمة .

- بل المهم أن يجيء من يجب أن يجيء ... إننا نحلم بمجد أمة ... ويجب أن يبنى

هذا المجد

وأقول لنفسي ومازلت أتقلب في فراشي في الغرفة التي ملأها الدخان و تكاثفت

فيها الانفعالات :

- وإذن؟

- أسمع. هاتفاً يرد علي :

- وإذن ماذا؟

- وأقول لنفسي في يقين هذه المرة :

- إذن يجب أن يتغير طريقنا... ليس ذلك هو العمل الإيجابي الذي يجب أن

نتجه إليه.. المسألة أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغوارا.

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمرقه هو الآخر أصوات

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التي مازالت أصدائها ترن في أعماقي؟

ووجدت نفسي أقول فجأة :

- ليت لا يموت !.

وكان غريباً أن يطلع علي الفجر، وأنا أتمنى الحياة للواحد الذي تمنيت له الموت في المساء !.

وهرعت في لهفة إلى إحدى صحف الصباح... وأسعدني أن الرجل الذي دبرت اغتياله... قد كتبت له النجاة.

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية .

وإنها المشكلة الأساسية.. هي العثور عن العمل الإيجابي!

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقي في شيء أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغواراً .

وبدأنا نرسم الخطوة الأولى في الصورة التي تحققت مساء ٢٣ يوليو ، ثورة منبعثة من قلب الشعب ، حاملة لأمانيه ، مكملة لنفس الخطوات التي خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذي نريد أن نصنعه !؟.

و الثاني : وما طريقنا إليه ؟.

وقلت : إن الإجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الإجماع .

أما السؤال الثاني : ما طريقنا إلى الذي نريد أن نصنعه ؟ فهو الذي أطلت فيه الكلام حتى وصلت إلى ٢٣ يوليو !

ولكن أكان الذي حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه ؟.

المؤكد أن الجواب بالنفي ، فإن تلك لم تكن إلا الخطوة الأولى على الطريق .

والحق إن فرحة النجاح يوم ٢٣ يوليو لم تخدعني ، ولم تصوري أن الآمال قد

تحققت ، وأن الربيع قد جاء ... بل لعل العكس هو الصحيح ..

لقد كانت كل دقيقة تحمل إلي انتصاراً جديداً للثورة . تحمل إلي في نفس الوقت عبأً ضخماً ثقيلاً تلقيه بلا مبالاة فوق كتفي .

ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث : « إني كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر إلا الطليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة ورائها صفوف مترامة منتظمة زاحفة » .

وقلت : إنني تصورت أن دورنا دور الطليعة ، وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المنتظمة .

ورسمت أيضاً في ذلك الجزء صورة للخلاف والفوضى والأحقاد والشهوات التي انطلقت من عقالها في تلك اللحظات ، كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذي حدث .

ولقد قلت وسأظل أقول أن تلك كانت أقسى مفاجأة في حياتي .

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائي فتتحقق أحلامنا .

ولم يكن يمكن في غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات أجيال .

ولقد كان من السهل وقتها - وما زال سهلاً حتى الآن - أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهوائها .

ولكن أي نتيجة كان يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا العمل ؟ .

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة مشكلة من المشاكل هو ردها إلى أصلها ومحاولة تتبع ينبوع الذي بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية

التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعاً تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن...

ولقد قلت مرة: إني لا أريد أن أدعي لنفسي مقعد أستاذ التاريخ، فذلك آخر ما يجري إليه خيالي، وقلت: إني سأحاول محاولات تلميذ مبتدئ في التاريخ.

ولقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطريق من الدنيا.

وكثير ما كنا مَعْبَرًا للغزاة، مطمَعًا للمغامرين، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة في نفوس شعبنا إلا إذا وضعناها موضع الاعتبار.

وفي رأبي أنه لا يمكن إغفال تاريخ مصر الفرعوني، ثم تفاعل الروح اليوناني مع روحنا، ثم غزو الرومان، والفتح الإسلامي وموجات الهجرة العربية التي أعقبته.

وفي رأبي أيضاً أنه يجب التوقف طويلاً عند الظروف التي مرت علينا في العصور الوسطى، فإن تلك الظروف هي التي وصلت بنا إلى ما نحن عليه الآن.

وإذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة في أوروبا، فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا.

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية، وخرج بعدها فقيراً، معدماً، منهوك القوى.

وفي نفس الوقت الذي هدته المعركة فيه، شاءت له الظروف أن يعاني الذل تحت سنايك خيول الطغاة القادمين من المغول والشركس.

كانوا يجيئون إلى مصر عبداً فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء.

وكانوا يساقون إليها مماليك فلا تمضي عليهم فترة في البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكاً.

وأصبح الطغيان والظلم والخراب، طابع الحكم في مصر على عهدهم الذي

عاشت مصر في مجاهله قرون طويلة .

في تلك الفترة تحول وطننا إلى غابة تحكمها وحوش ضارية كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم على نصيب كل منهم في الغنيمة . وكانت أرواحنا ، وثوراتنا ، وأراضينا ، هي الغنيمة .

وأحياناً حينها أعود إلى تقلب صفحات من تاريخنا ، أحس بالأسى يمزق نفسي إزاء تلك الفترة التي تكون فيها إقطاع طاع لم يجعل له من عمل إلا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا سحب بقايا الإحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وترك في أعماق نفوسنا تأثيراً يتعين علينا أن نكافح طويلاً لكي نتغلب عليه .

والواقع أن تصوري لهذا التأثير يعطيني في كثير من الأحيان تفسيراً لبعض المظاهر في حياتنا السياسية .

أحياناً مثلاً يخيّل إلى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر إلا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيها علاقة . وأحياناً أثور على هذا الوضع ، وأحياناً أقول لنفسي ولبعض من زملائي : لماذا لا يقدمون؟ ، ولماذا لا يخرجون من المكامن التي وضعوا فيها أنفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا؟ .

ولا أجد تفسيراً لهذا إلا رواسب حكم المماليك .

كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم في الشوارع ويهرع الناس إلى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذي لا دخل لهم فيه .

وأحياناً يخيّل إلى أننا نلجأ إلى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا في إطار الوهم ما نريد ، ونستمع نحن بهذا الوهم ونعقد به عن محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم

سأدته وأصحاب الأمر فيه .

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيراً ما هتفت بها طفلة صغيرة حينما كنت أرى الطائرات في السماء .

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تاخذ الإنكليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ، ولم تكن يومها منصبة على الإنكليز وإنما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتي لم تتغير وإن تغير اسم الظالم ، فقد كان أجدادنا يقولون :

« يا رب يا متجلي .. أهلك العثمالي ! » .

وبنفس الروح التي لم تتغير جرى المعنى على لساننا وإن تغير اسم « الإنكليز » باسم العثمانيين طبقاً للتغيرات السياسية التي توالى على مصر بين العهدين ! .

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟ .

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدي الذي فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد علي كل ظروف المماليك ، وإن حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زي القرن التاسع عشر .

وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد .

وبدأت اليقظة الحديثة ! .

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة .

لقد كنا - في رأي - أشبه بمرضى قضي زمناً في غرفة مغلقة ، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تحتنق .

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء البارد تلسع جلد المريض الذي مازال يتصبب عرقاً .

لقد كان في حاجة إلى نسمة هواء.. فانطلق عليه إعصار عات و أنشبت الحمى أظافرها في الجسد المنهوك القوى .

هذا ما حدث لمجتمعنا تماماً ، وكانت تجربة مخوفة بالمخاطر !.

كان المجتمع الأوروبي قد سار في تطوره بانتظام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة إثر أخرى .

أما نحن فقد كان كل شيء مفاجئاً لنا .

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ، خصوصاً بعد تحول التجارة مع الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، فإذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا ومعبراً إلى مستعمراتها في الشرق والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التي وصلنا إليها في تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت أرواحنا مازالت تعيش في آثار القرن الثالث عشر ، وإن سرت في نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين .

وكانت عقولنا ، تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط ماضياً والسباق مروعاً خيفاً .

وما من شك في أن هذا الحال هو المسؤول عن عدم وجود رأي عام متحد قوي في البلاد ، فإن الفارق بين الفرد و الفرد كبير ، والفارق بين الجيل و الجيل شاسع .

ولقد جاء علي وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وأن اجتماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسرون فيه ، ثم أدركت بعدها إنني أطلب المستحيل ، وإنني أسقط من حسابي ظروف مجتمعنا .

إننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد، وما زال يفور و يتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجي بعد مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق.

وأنا أعتقد ، دون أن أكون في ذلك متملقاً لعواطف الناس ، أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أي مجتمع تعرض لهذه الظروف التي تعرض لها مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التي تدفقت علينا.. ولكننا صمدنا للزلازل العنيف.

صحيح أننا نفقد توازننا في بعض الظروف ، ولكن بصفة عامة ، لم نقع على الأرض.

وأنا أنظر أحياناً إلى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التي تعيش في العاصمة. الأب مثلاً فلاح معمم من صميم الريف .  
والأم سيدة منحدره من أصل تركي .  
وأبناء الأسرة في مدارس على النظام الإنكليزي .  
وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي .  
كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .  
أنظر إلى هذا وأحس في أعماقي بفهم للحيرة التي نقاسيها والتخبط الذي يفترسنا، ثم أقول لنفسي:

سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، إنما ينبغي أن نشد أعصابنا ونحمل فترة الانتقال.

تلك إذاً هي الأصول التي انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه هي الينابيع التي تجري منها أزممتنا ، فإذا أضفت إلى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروفنا من أجلها طردنا « فاروق » ، ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أي جندي غريب - إذا أضفت هذا

كله ، لخرجنا إلى الأفق الواسع الذي نعمل فيه ، والذي تهب عليه الرياح من كل ناحية . وتزجر في جنباته العواطف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ، والذي قلت أنه من الظلم أن يفرض فيه علينا حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

وإذاً ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط؟ لا يزيد ولا ينقص... الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلتزم طريقاً معيناً ، وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة . كل جماعة منها شردت في ناحية ، وكل فرد مضى في اتجاه .

وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذي يمضي فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير . هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دور سواه .

ولو خطرت لي أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهماً ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .

إننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

إنما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت وأن نجري وراء الشاردين فنردهم إلى حيث ينبغي أن يبدووا المسير ، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذي يجرون وراءه .

ولقد كنت مدركاً منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة ، وكنت أعلم مقدماً إنها

ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ، وأن نخاطب عقول الناس ، وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس أن يسمعه !.

وما أسهل الحديث إلى غرائز الناس وما أصعب الحديث إلى عقولهم !.

وغرائزنا جميعاً واحدة ، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت وكان سياسة مصر في الماضي من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة فاتجهوا إلى الغريزة يخاطبونها . أما العقل فتركوه هائماً على وجهه في الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء .

كنا نستطيع أن نملاً أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التي لا تخرج عن حد الوهم والخيال ، أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تعد لها العدة ولم تتخذ لها أهبةً ، أو كنا نستطيع ترك أصواتهم تبج من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تأخذ الإنكليز » .

تماماً كما كان أجدادنا تبج أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم :

« يا رب يا متجلي .. أهلك العثمالي » .

وبعدها لاشيء !.

لكن أكانت تلك مهمتنا التي شاءها لنا القدر؟

وما الذي كنا نستطيع أن نحققه فعلاً إذا سرنا في هذا السبيل؟

ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث : إن نجاح الثورة يتوقف على إدراكها لحقيقة الظروف التي تواجهها وقدرتها على الحركة السريعة . وأضيف الآن إلى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البراقة وأن نقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها !

وإلا فإننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها .

وكثيراً ما يجيئني من يقول لي :

لقد أغضبتم كل الناس .

وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائماً :

- ليس غضب الناس هو العامل المؤثر في الموقف ، وإنما السؤال هل كان الذي

أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره ؟ .

أنا أدرك إننا أغضبنا كبار الملاك .

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة ووطننا ..وفينا من يملك منها

عشرات الألوف من الأفدنة وفينا منها لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت ؟

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء !.

ولكن هل يمكن أن نغضبهم ونترك ووطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم

وصراعهم على مغنم الحكم ؟.

وأنا أدرك أننا أغضبنا عدداً كبيراً من الموظفين .

ولكن هل يمكن أن نعطي أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين و لا

نستطيع - كما صنعنا بالفعل - أن نخصص أربعين مليوناً من الجنيهات

للمشروعات الإنتاجية ؟.

ماذا علينا لو كنا فتحنا - كما فعل غيرنا - خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على

الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان ، وليكن - أيضاً - أن يجيء العام القادم فلا

تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلاً و أساساً .

وما كان أسهل أن نرضي هؤلاء جميعاً وغيرهم ... ولكن ما الثمن الذي كان

وطننا سيدفعه من آماله و مستقبله في مقابل هذا الرضا؟.

\*\*\*

ذلك دورنا الذي حدده لنا تاريخ ووطننا ، ولا مفر أمامنا من أن نقوم به ، مهما

كان الثمن الذي ندفعه .

ولم نخطئ أبداً في فهم هذا الدور ، ولا في إدراك طبيعة الواجبات التي يلقيها علينا .

تلك خطوات لإصلاح آثار الماضي ورواسبه مضيئنا فيها وتحملنا من أجلها كل شيء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا أننا لا نملك هذا وحدنا .

\*\*\*

فمن أجل ضمان الحياة السياسية في المستقبل ذهبنا إلى عدد من قادة الرأي من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم .

ضعوا للبلد دستوراً يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية في المستقبل ذهبنا إلى أكبر الأساتذة في مختلف نواحي الخبرة وقلنا لهم :

نظموا للبلد رخائه واطمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الإنتاج .

تلك حدودنا لم نتعدها .

إزالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما يكن الثمن .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوي الرأي والخبرة ، فرض لازم

عليهم وليس لنا أن نستأثر به دونهم ، بل إن مهمتنا تقتضي أن نسعى لجمعهم من

أجل مستقبل مصر ... مصر القوية المتحررة ! .



## الجزء الثالث:

بعد غيبة ثلاثة شهور - الزمان والمكان - القدر لا يهزل - دوائر  
ثلاث - دور يبحث عن بطلنة - فلسطين ليست بلداً غريباً - لقاء مع  
عرب فلسطين - أعلى أسرار الطيران - أفكار في ميدان القتال - الأرض  
و النجوم - نظرة إلى مذكرات وايزمان - الكفاح الواحد وعناصره -  
القوة بالأرقام - مسؤوليتنا في إفريقيا - الحكمة الحقيقية من الحج



مرة ثالثة أعود إلى فلسفة الثورة .

أعود إليها بعد غيبة طويلة امتدت إلى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث والتطورات السريعة المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت من خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التي أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها في الفضاء .

ولكن الرياح التي عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور في تفكيري وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى سواء في ذاكرتي أو في الأيام ، تضيفها إليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما الصورة الصحيحة الواضحة التي أريد أن أرسمها هذه المرة ؟ وما علاقتها بالمحاولات التي قمت بها قبل ذلك ، في الجزء الأول ثم في الجزء الثاني من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؟

لقد تحدثت في الجزء الأول عن بداية الثورة في نفوسنا كأفراد وفي نفوسنا كناذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة في تاريخ أمتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو في هذه الثورة.

وفي الجزء الثاني تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء في نظرنا المليئة بالعبر إلى الماضي أو في تطلعننا المفعم بالأمل إلى المستقبل .

وإذا فقد كان حديثي في الجزئين السابقين عن الزمان ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، وإذا فليكن الحديث في هذه المرة عنه .

وليس هدفي أن أدخل في بحث فلسفي معقد عن الزمان والمكان . وإنما الذي لا

شك فيه هو أن العالم كله ، لا وطننا فحسب ، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .  
وإذا كنت أقول إننا في تصويرنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمن ،  
فإننا أيضاً وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان .  
وبعبارة أبسط :

نحن الآن لا نستطيع أن نعود إلى القرن العاشر ، نرتدي ملابسه التي تبدو  
لعيوننا غريبة مضحكة ، ونتوه في أفكاره التي تظهر أمامنا اليوم أطباقاً من الظلام  
خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطع من ألاسكا المتعلقة  
بأقصى أصقاع الشمال ، أو على أننا جزيرة «ويك» النائية المهجورة في تيه الباسفيك .  
الزمان إذاً يفرض علينا تطوره .  
والمكان أيضاً يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن أمضي مع الزمان ، فلأحاول هذه المرة أن أتجول في عالم  
المكان .



وثمة شيء يجب أن نتفق عليه أولاً وقبل أن نمضي في هذا الحديث ذلك هو  
تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

إن قال لي أحد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التي نعيش فيها فإني  
أختلف معه . وإن قال لي أحد إن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فإني  
أيضاً أختلف معه .

ولو كان الأمر كله محصوراً في حدود عاصمتنا . أو في حدود بلادنا السياسية  
لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب ، وعشنا في البرج العاجي نحاول أن  
نبتعد به بقدر ما نستطيع عن العالم ومساكله وحروبه و أزماته تلك التي تقتحم

علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .  
ولقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التي كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التي تخطط حدود  
الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر أمام كل بلد أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين  
تجيئه التيارات التي تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره وكيف .. وكيف ..  
ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها  
في المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوي وميدان نشاطها  
ودورها الإيجابي في هذا العالم المضطرب .

وأنا أجلس أحياناً في غرفة مكتبي وأسرح بخواطري في نفس هذا الموضوع  
أسأل نفسي :

- ما هو دورنا الإيجابي في هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذي يجب أن  
نقوم فيه بهذا الدور ؟ .

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا أن يدور عليها  
نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

إن القدر لا يهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ولا وجود يصنعه  
الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه  
الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن تتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وإن هذه الدائرة منا ونحن  
منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها ، حقيقة وفعلاً لا مجرد  
كلام ؟ .

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها، وهو صراع سوف تكون أثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعن وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ؟

وكما قلت مرة: أن القدر لا يهزل.

فليس عبثاً أن بلدنا في جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها.

وليس عبثاً أن بلدنا يقع في شمال شرق إفريقيا، ويطل من على القارة السوداء التي يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمرها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التي لا تحدد.

وليس عبثاً أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي - الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة - تراجع إلى مصر وأوى إليها فحمته مصر وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه في عين جالوت.

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا، لا نستطيع مهما نحاول أن ننسها أو نفر منها.

\*\*\*

ولست أدري لماذا أذكر دائماً عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكاري وأنا جالس وحدي في غرفتي شارداً مع الأفكار، قصة مشهورة للشاعر الإيطالي الكبير «لويديجي بيراندلو» أسماها: ست شخصيات تبحث عن ممثلين!

إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولية مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه.

إن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدري لماذا يخيل لي دائماً أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هاماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به ، ثم لست أدري لماذا يخيل لي إن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فإن أحد غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبادر هنا وأقول : إن الدور ليس دور زعامة .

وإنما هو دور تفاعل و تجاوز مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها و تقوم بدور إيجابي في بناء مستقبل البشر .

وما من شك إن الدائرة العربية هي من أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا . فلقد امتزجت معنا في التاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك . وامتزجت هذه الدوائر معنا أيضاً بالدين ، فنقلت مراكز الإشعاع الديني من حدود عواصمها ، من مكة إلى الكوفة ، ثم إلى القاهرة ثم جمعها الجوار في إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجاً على وعد بلفور الذي منحتة بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين ، واغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين .

و حين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت : لماذا أخرج في حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أرها ؟ لم أكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لما أصبحت طالباً في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة و ظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة يتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة!.

ثم بدأ الفهم يتضح و تتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل . ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعاً في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في أرض عربية . وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس!

\*\*\*

وأذكر يوماً عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعاً واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين وذهبت في اليوم التالي أطرق بيت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين ، وكان لا يزال يعيـش في الزيتون، وأقول له :

- إنكم في حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع وهم تحت أمرك في أي وقت تشاء!.

وقال لي الحاج أمين الحسيني : إنه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئاً .

ثم قال لي الحاج أمين :

سوف أعطيك ردي بعد استئذان الحكومة .

وعدت إليه بعد أيام ، وكان رده ، الرد الذي حصل عليه من الحكومة وهو الرفض !.

ولم نسكت .

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تلك المستعمرات اليهودية جنوبي القدس ، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التي تحولت إلى مجلس قيادة الثورة .

أذكر سرّاً آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار .

كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق ، واتصل ببعض ضباط القاوقجي . وكان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية و يستعد معركة حاسمة فاصلة في المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن إبراهيم و عبد اللطيف بغداددي خطة جريئة للقيام بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير .

كانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي أن قوات التحرير العربية لا تملك طيراناً يساعدها في المعركة ويرجع النصر إلى كفتها ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عملاً فاصلاً ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟.

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، ولكن جو الرقابة على القوات المسلحة - بما فيها سلاح الطيران - حذراً متيقظاً !.

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة .

وبدأت في سلاح الطيران حركة عجيبة ، وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح الطائرات و إعدادها ، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمى في نفوس عدد من الطيارين ..

ولم يكن هنا إلا قلائل يعرفون السر ...

يعرفون أن الطائرات و قوادها قد أعدوا ليوم تحييء فيه من سوريا إشارة سرية ،  
فينطلقون بعدها إلى الجو ليشتروا بكل قواتهم في معركة حاسمة على الأرض  
المقدسة . ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويتربعون  
الأحوال في مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التي أقدموا عليها ، ثم يقررون  
كيف يتصرفون بعدها! .

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية وأذكر أن  
كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى  
الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ..

وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار . والمؤكد أن نفس الشعور  
كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين في السر الكبير إن هذه المخاطرة الجريئة لم  
تكن حباً في المخاطرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة في نفوسنا ، إنما كانت وعياً ظاهراً  
لإيماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضي علينا أن ندافع  
عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة .

\*\*\*

ولم تتم الخطة يومها ... لأننا لم نتلق الإشارة السرية من سوريا .  
وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب في فلسطين .  
ولست أريد أن أدخل في تفاصيل حرب فلسطين - الآن - فذلك بحث تشعب  
فيه الأحاديث ، وإنما يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب .  
لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة ، و إذن فهذه  
الشعوب جميعاً تشارك في شعورها و في تقديرها لحدود سلامتها .  
ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، وإذن فهي جميعاً ، كل منها

في بلاده ، قد تعرض لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التي ساقتها إلى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار.

ولقد خلوت إلى نفسي مرات كثيرة في خنادق عراق المنشية وفي جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تقف في ذلك القطاع وتدافع عنه أحياناً وتهاجم في أكثر الأحيان .

وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة من حولي بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيداً مع الخيال .

وأحياناً كانت الرحلة مع الخيال تمضي بي بعيداً إلى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة بأكملها .

وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتي .

هذا هو المكان الذي نقب محاصرين فيه ، هذه مواقع كتبتنا وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات أخرى لنا ... وهي أيضاً محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقي لها مجال للمناورة المحدودة.

إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزاً أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات إخواننا في السلاح وفي الوطن الكبير وفي المصلحة المشتركة وفي الدافع الذي جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين.

هذه هي جيوش إخواننا ... جيشاً جيشاً ... كلها هي أيضاً محاصرة بفعل الظروف التي تحيط بها والتي كانت تحيط بحكومتها .. لقد كانت جميعاً تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا إرادة إلا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعاً تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرات محبوكة أخفت عنها عمداً ما يجري ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض ، فأحس أنني أدافع عن بيتي وأولادي ، ولا تعينني أحلامي الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما ألتقي في تجوالي فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت في مثل عمر ابنتي ، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خارقة قماش .

وكنت أقول لنفسي :

قد يحدث هذا لابنتي!

وكنت مؤمناً أن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث - وما زال احتمال حدوثه قائماً - لأي بلد في هذه المنطقة مادام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن .

\*\*\*

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين وعدت إلى الوطن ، وكانت المنطقة كلها في تصوري قد أصبحت كلا واحدا .

وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي .

كنت أتابع تطورات المواقف فيها فأجد أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غدا ، وفي بيروت وفي عمان ، وفي بغداد ، وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفسي .  
منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل ، بل نفس القوى المتألمة عليها  
جميعاً .

وكان واضحاً أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى إسرائيل نفسها ، لم تكن إلا أثراً من آثار الاستعمار .

فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطاني لما استطاعت الصهيونية أن  
تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين ... ولظلت هذه الفكرة خيالاً  
مجنوناً ليس له أي أمل في الواقع .

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامي مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية  
إسرائيل ومنشئها الحقيقي ، وهي المذكرات التي نشرها في كتابه المشهور « التجربة  
والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفني فيه .

يستوقفني قول وايزمان :

«لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت في العالم دولتان تستطيع كل  
منهما مساعدتنا ألمانيا وبريطانيا .

أما ألمانيا فقد أثرت أن تبتعد عن كل تدخل .

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف .»

ويستوقفني بعد ذلك قول وايزمان :

ولقد حدث في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقدناه في سويسرا أن وقف  
هرتزل يعلن أمام يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ،  
قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، ومنفصلة عن غيرها .

وإننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ  
هرتزل خطاباً من اللورد لا ترسون نائباً عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى .

وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطننا قوميا.

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد و دفناه دون ضجة .

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ألفتنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا إلى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلو في القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر الذي أظهر كل العطف على أمانينا في الوطن القومي .

ولكن اللجنة لم تجد في منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذي كنا من أجله نريد الوطن القومي .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير الخارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور :

لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا ؟.

وقلت لبلفور :

إن الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الثقة أننا إذا أغفلنا الجانب الروحي فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي .

ثم قلت الى بلفور :

«ماذا تقول لو أن أحدا قال لك: خذ باريس بدلا من لندن هل تقبل ؟ » .

ويستوقفني أيضاً قول وايزمان :

وعدت إلى لندن في خريف سنة ١٩٢١ وكان الغرض من رجوعي أنني دعيت إلى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطاني في فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قرارا بعد أن

وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها.  
 وكان لورد كيرزون قد ولي وزارة الخارجية محل بلفور، وكان هو المسؤول عن وضع مشروع الوثيقة .  
 وكان معنا في لندن القانوني الشهير ابن كوهين ، وهو من أقدر واضعي الصيغ القانونية في العالم ، وكان إيرك فوريس آدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول و أخير :  
 كتبنا نحن في مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيّد بريطانيا فيها بوعده بلفور ، وبأن تكون خطتها في فلسطين قائمة على أساس الوطن القومي لليهود ، وكان نص العبارة التي كتبناها نحن :

«والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية في فلسطين»

وقال كيرزون: إنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال أنه يرى أن تكون كما يلي :

«والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية في فلسطين» .

وكنت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان في « التجربة والخطأ » ... ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجرائم الأولى للمضاعفات التي مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها!

\*\*\*

وأعود للذي كنت أقوله : من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصارا قاتلا غير مرئي ، أقوى و أقصى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في «الفالوجة» وبجيوشنا جميعاً وبحكومتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي ، أو من بكفاح واحد

مشترك ، وأقول لنفسي :

مادامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد .  
والعدو واحد مهما يحاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة - فلماذا تشتت  
جهودنا ؟

ثم زادني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو إيمانا بهذا الكفاح الواحد و ضرورته .  
فقد بدأت خبايا الصورة تنكشف ، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .  
وأعترف أني كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التي تسد الطريق إلى الكفاح  
الواحد ، ولكنني بدأت أو من بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول ؛ لأنها من  
صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

ولقد بدأت أخيراً في اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما تكن  
وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هي العقبة الأولى في  
طريقنا هي « الشك » وكان واضحاً أن بذور هذا الشك قد بذرها في نفوسنا ذلك  
العدو الواحد نفسه ، لكي يحول بيننا وبين الكفاح الواحد .

وأذكر أني جلست في الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب ، وكان معنا  
زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذي أقوله ..  
وكان يقول العبارة ثم يلتفت لزميله ليرى أثر الذي يقوله في وجهه بدل أن  
يحاول استكشاف أثره في أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل ما في نفسك من شكوك ، وقل لي كل ما في  
قلبك ، وانظر في عيني ولا تدر وجهك !.

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التي تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ،  
فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله إلى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية  
والجغرافية ، ولكن المؤكد أنه يمكن مع شيء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا

على التفريط ، إيجاد الخط الذي يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تخرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد.

ولست أشك دقيقة في أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود إلينا وعلى شعوبنا بكل الذي نريده لها ونتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول : إننا أقوىاء ولكن الكارثة الكبرى ، إننا لا ندرك مدى قوتنا !

إننا نخطئ في تعريف القوة ، فليست القوة أن تصرخ بصوت عالي ، إنما القوة أن تتصرف إيجابيا وبكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل في الحساب .

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادي ومعنوي يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات و حضارة انبعثت في جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط إغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .  
هذا هو المصدر الأول.

أما المصدر الثاني : فهو أرضنا نفسها و مكانها على خريطة العالم . وذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذي يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبّر تجارته ، وممر جيوشه .

ويبقى المصدر الثالث : وهو البترول الذي يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذي بدونه تستحيل كل أدواتها - المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الإنتاج ، وسائل المواصلات في البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء في ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المستترة تحت أطباق الموج - تستحيل كلها قطع من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة .. أو حياة .

وبودي لو وقفت قليلاً عند البترول ، فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الإحصائيات والأرقام يصلح لأن يكون نموذج للمناقشة في أهمية مصادر القوة في بلادنا. ولقد قرأت أخيراً رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول وبودي لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره في المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها وإحصائياتها :

تقرر هذه الرسالة أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيراً من المال .

«لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليون من الدولارات في كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت إلا في سنة ١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليوناً من الدولارات في فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت إلا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليوناً من الدولارات في جزر الهند الهولندية وأخيراً عثرت على الزيت .»

وكانت النتيجة الأخيرة التي قررتها هذه الرسالة في هذا الموضوع :

إن رأس المال المطلوب لاستخراج برمبيل من الزيت في أمريكا هو ٧٨ ستنًا .

إن رأس المال المطلوب لاستخراج برمبيل من الزيت في أمريكا الجنوبية هو ٤٣ ستنًا .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برمبيل من الزيت في البلاد العربية هو ١٠ ستنات .

إن عاصمة إنتاج البترول قد انتقلت من الولايات المتحدة التي استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدي العاملة لأبنائها إلى المنطقة

العربية التي مازالت آبارها بكرأ ، والتي مازالت أراضيها بلا ثمن ، والتي مازالت يدها العاملة تقبل مادون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة ، والنصف الباقي موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبي وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضا أن متوسط إنتاج البئر الواحد في اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا في الولايات المتحدة.

٢٣٠ برميلا في فنزويلا .

٤٠٠ برميل في المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟

أرجو أن أكون قد وفقت .

وإذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس في علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، إنما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقي لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التي تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها على كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة

\*\*\*

هذا عن الدائرة الأولى التي لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهي الدائرة العربية .

فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية ، وهي دائرة القارة الإفريقية قلت دون استفاضة أو إسهاب : إننا لن نستطيع بحال من الأحوال - حتى لو أردنا - أن نقف

بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الإفريقيين .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالي للقارة ، والذين نعتبر صلتهم بالعالم الخارجي كله .

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسؤولياتنا في المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد مائه من قلب القارة .

ويبقى أن السودان - الشقيق الحبيب - تمتد حدوده إلى أعماق إفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها .

والمؤكد أن إفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذي يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحال من

الأحوال أن نقف أمام الذي يجري في إفريقيا ونتصور أنه لا يمسننا ولا يعيننا

ولسوف أظل أحلم باليوم الذي أجد فيه القاهرة معهدا ضحما لإفريقيا يسعى لكشف نواحي القارة أمام عيوننا و يخلق في عقولنا وعيا إفريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة و رفاهيتها .

\*\*\*

ثم تبقى الدائرة الثالثة .. الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات والتي قلت : إنها دوائر إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد إيماني بمدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط

الإسلامي بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء في وفاة عاقلها الراحل الكبير.

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ثم وجدتنني أقول لنفسي :

يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، لا يجب أن يصبح محاولة الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن يكون الحجيج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم و تقاليد تصنع صورة طريفة لقراء الصحف وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال الرأي فيها وعلماؤها في كافة أنحاء المعرفة وكتابها و ملوك الصناعة فيها وتجارها وشبابها ليضعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معه ، حين يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين .. ولكن أقوىاء ، متجردين من المطامع .. لكن عاملين ، مستضعفين لله .. ولكن أشداء على مشااكلهم وأعدائهم ، حاملين بحياة أخرى .. ولكن مؤمنين إن لهم مكاناً تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة.

وأذكر أني قلت بعض خواطري هذه لجلالة الملك سعود فقال لي الملك :

إن هذه هي فعلاً ، الحكمة الحقيقية من الحج .

وفي الحق أني لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

وحين يسرح بي خيالي إلى ثمانين مليون من المسلمين في إندونيسيا وخمسين مليون في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو و سيام و بورما ، وما يقرب من مائة مليون في باكستان و أكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليون داخل

الاتحاد السوفيتي ، وملايين غيرهم في أرجاء الأرض المتباعدة- حين أسرح بخيالي إلى هذه المثات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بإحساسي الكبير بالإمكانات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم وإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة .

ثم أعود إلى الدور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم به ..ذلك هو الدور ، وتلك هي ملامحه ، وهذا هو مسرحه ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به .

